مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :1 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/02/06، تاريخ القبول: 2019/02/06 ، تاريخ النشر: 2019/03/23

# الدّرس النّحويّ في الأندلس
# هل هو مدرسة أم مذهب أم منهج نحويّ؟

**د. عبد الرّحمان عيساويّ**
**جامعة آكليّ محند أولحاج – ولاية البويرة -**

**تمهيد**

يحدّد المؤرّخون مرحلة نشوء النّحو العربيّ ونموّه من عهد الخليل بن أحمد الفراهيديّ البصريّ؛ إلى عصر المازنيّ البصريّ، وابن السّكيت الكوفيّ، وتتميّز هذه المرحلة باشتراك البصرة والكوفة بالعمل على نموّ علم النّحو، ويدخل في هذا العهد بداية دراسة مباحث الصّرف مع النّحو، بحيث اهتمّ علماؤها بأحوال بنيّة الكلمة، وما يعتورها من تغيّرات، على خلاف من سبقوهم[1]، الّذين انصبّ اهتمامهم على أواخر الكلمات، وكان قصدهم من وراء ذلك درء اللّحن، ودفع الخطأ عن اللّغة.

لقد ابتدأ طور النّموّ «وأخذ العلماء في كتب النّحو ومباحثه سمتا آخر؛ غير ما اتّجهوا إليه في الماضي، ونشطت في التّقصّي والاستقراء للمأثور عن العرب، وفي إعمال الفكر، واستخراج القواعد، وكان مبعث ذلك النّشاط؛ هو التّنافس البلديّ.»[2] أيّ التّنافس الّذي حصل بين علماء البلدين: البصرة والكوفة، «فسطع في سماء البصرة نجوم متألّقة؛ تألّف منها عقد الطّبقة الرّابعة بزعامة سيبويه،

---

[1]- تسمّى المرحلة السّابقة لمرحلة النّشوء والنّموّ؛ مرحلة الوضع والتّكوين، و تبدأ هذه المرحلة مع أبي الأسود الدّؤليّ إلى المرحلة الأولى من عصر الخليل بن أحمد الفراهيديّ، وكان هذا في عهد بني أمّيّة. – ينظر التّفصيل في كتاب: مراتب النّحويّين، أبو الطّيّب عبد الواحد بن عليّ اللّغويّ الحلبيّ، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، د ط، د ت، ص: 06 وما بعدها.

[2]-نشأة النّحو وتاريخ أشهر النّحاة، الشّيخ أحمد الطّنطاويّ، دار المعارف، القاهرة، ط2، د ت، ص: 42.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :1 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/02/06، تاريخ القبول: 2019/02/06 ، تاريخ النشر: 2019/03/23

الّذي وُهِبَ ملكة التّصنيف والتّنسيق، فأبدع كتابه على مثال لم يسبق إليه، ولم يدع استدراكا عليه، وكان يعاصرها الطّبقة الثّانية الكوفيّة الّتي يقودها الكسائيّ، الّذي لم يَأْلُ جهدا؛ حتّى أخرج للنّاس مؤلّفات استفادوا منها.»[1] ومن علماء هذه المرحلة؛ نجد الفراهيديّ، وسيبويه، والأخفش الأوسط، وهم أقطاب مدرسة البصرة، أمّا من علماء مدرسة الكوفة؛ فنجد الرّؤاسيّ المقرء، والكسائيّ، والفرّاء، وقد تميّزت بنضج القياس والتّعليل وفكرة العامل، واشتداد التّنافس بين علماء البلدتين، فيما كان يختلفان فيه من آراء ومذاهب.

إنّ اللّقاءات والمناظرات الّتي كانت تحدث بين علماء البصرة وعلماء الكوفة في العاصمة العباسيّة بغداد، وفي حضرة خلفائها؛ ولّدت جيلا ثالثا، انقسم إلى فريقين: منهم المتعصّب للمذهب البصريّ، ومنهم المتعصّب للمذهب الكوفيّ، «فمنذ القرن الثّالث الهجريّ؛ أخذت المدرستان المتنافستان في البصرة والكوفة؛ تتقاربان وتندمجان إحداهما في الأخرى باطّراد، وسرعان ما غدت بغداد حاضرة الخلافة اللاّمعة، مركزا للحياة العقليّة كافّة، وحجبت غيرها من مدن الأقاليم وراء ظلالها.»[2] ونتج عن هذا الاحتكاك بالعاصمة بغداد علماء نحويّون نهجوا نهج البصريّين، أو نهج الكوفيّين بعد انتهاء زعامة المدرسة البصريّة برئاسة المبرّد، وانتهاء المدرسة الكوفيّة برئاسة ثعلب، ولكنّ ما يميّز هؤلاء؛ أنّهم لم يكونوا شديدي التعصّب لمذهبهم كما كان حاصلا مع علماء المدرستين، ولم يكن كلّ فريق يستنكف من الاستفادة من الآخر، والنّظر في المذهبين، والموازنة بين الرّأيين، بل أخذوا المستحسن من المدرستين، وأضافوا ما استطاعوا من خلال الاجتهاد فيه، فكوّنوا بذلك مدرسة لهم؛ عرفت عبر التّاريخ بالمدرسة البغداديّة[3].

---

[1]- المرجع نفسه، ص: 34 - 35.

[2]- المرجع نفسه، ص: 221.

[3]- ينظر: مراتب النّحويّين واللّغويّين، أبو الطّيّب اللّغويّ، ص: 144. وطبقات النّحويّين واللّغويّين، أبو بكر محمّد بن الحسن الزّبيديّ الأندلسيّ، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط2، د ت، ص: 153، ونشأة النّحو، محمّد الطّنطاويّ، ص: 185 وما بعدها. وتاريخ

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :1 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/02/06، تاريخ القبول: 2019/02/06 ، تاريخ النشر: 2019/03/23

نشأت المدرسة النّحويّة البغداديّة بفضل ما استفاد به علماؤها من غيرهم من علماء البصرة والكوفة، وتمكّن هذا الجيل من تأسيس مدرسة نحويّة؛ لها منهجها وآراؤها وخلفيّتها المعرفيّة، وتوافد إليها الرّاغبون في طلب العلم، والتّعمّق في دراسة اللّغة العربيّة، والقراءات القرآنيّة، والعلوم الشّرعيّة من كلّ فجّ، واستقطبت اهتمامهم من كلّ مصر، من هؤلاء؛ نجد الوافدين من بلاد المغرب والأندلس، الّذين كان لهم الفضل الكبير في نقل علوم المشرق إلى المغرب، فهل تمكّن هؤلاء -كنظرائهم في بغداد- من إنشاء مدرسة نحويّة في الأندلس؟

**نشأة النّحو في الأندلس**

نشأ النّحو في بلاد الأندلس على يد مجموعة من المعلّمين، تمثّل دورهم الأوّل في تعليم أبناء المسلمين؛ مبادئ اللّغة العربيّة عن طريق ما نظّم من أشعار، أو ما كتب من نصوص نثريّة، بحيث «لم يكن عند مؤدّبيّ العربيّة، ولا عند غيرهم ممّن عنوا بالنّحو كبير علم (...) وذلك أنّ المؤدّبين؛ إنّما كانوا يعانون إقامة الصّناعة في تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكلها، وتقريب المعاني لهم في ذلك، ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربيّة، وغوامضها والاعتلال بمسائلها، ثمّ لا ينظرون في إمالة ولا إدغام ولا تصريف ولا أبنيّة ولا يجيئون في شيء منها.»[1] وكان دافعهم القويّ؛ الحرص الشّديد على الحفاظ على القرآن الكريم من الخطأ، -وهو الدّافع نفسه الّذي أدّى إلى نشأة النّحو في المشرق العربيّ-، ووقوفهم الحازم على ضرورة تلاوته تلاوة سليمة صحيحة خالية من اللّحن، كما تواترت على خير الآنام رسولنا الكريم – صلّى الله عليه وسلّم -، فـ«النّشاط النّحويّ في الأندلس نشأ على يد طبقة من المؤدّبين الّذين كانوا يعملّون الشّباب في قرطبة وغيرها من الحواضر الأندلسيّة مبادئ العربيّة (...)، وكان أكثرهم من قرّاء الذّكر الحكيم، وكان كثير منهم يرحلون إلى

---

الأدب العربيّ، ج2، كارل بروكلمان، نقله إلى العربيّة: د. عبد الحليم النّجّار، دار المعارف، القاهرة، ط4، د ت، ص: 126 .

[1]- طبقات النّحويّين واللّغويّين، الزّبيديّ، ص: 311.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :1 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/02/06، تاريخ القبول: 2019/02/06 ، تاريخ النشر: 2019/03/23

المشرق؛ فينقلون هذه القراءات، ويعودون إلى موطنهم، فيرسمونها للنّاس بجميع شاراتها، كما يرسمون لهم العربيّة بمقوّماتها اللّغويّة.»[1]

نبعت الدّراسة النّحويّة في الأندلس من بيئة المشرق، بفعل أولئك الّذين رحلوا من الأندلس طالبين للعلم، ومحتكّين بالعلماء في البصرة والكوفة وبغداد، ونقلوا معهم الكثير من المؤلّفات، قصد الاستفادة منها، وجعلها المصدر الأساسيّ لتقديم الدّروس للمتعلّمين، وكان هؤلاء -في بداية رحلتهم مع طلب العلم، ثمّ نقله إلى أبناء بلدتهم-؛ من «المؤدّبين لأولاد الخلفاء، أو لعامّة الشّعب، ثمّ تطوّر علمهم بالنّحو، فصار منهم نحاة مشهرون؛ عُرِف بهم النّحو الأندلسيّ، واشتهروا في مراكز الدّرس النّحويّ في أقطار المشرق والمغرب.»[2] لقد استفاد هؤلاء المؤدّبون ممّا تعلّموه من نحو على يد علماء الكوفة أوّلا، ثمّ علماء البصرة ثانيا، وعلّموه بالدّرس والشّرح لروّاد حلقات التّدريس في موطنهم الأندلس، فتكوّن بذلك لديهم فكر نحويّ، نقلوه فيما ألّفوه من كتب، لأنّهم أرادوا أن يجعلوا لأنفسهم مدرسة نحويّة خاصّة، منفصلين بذلك عن المدارس والمذاهب الّتي عرفت في المشرق العربيّ.

## مراحل تطوّر الدّرس النّحويّ في الأندلس[3]

قسّم الدّارسون انتشار النّحو في الأندلس إلى مراحل، وكلّ مرحلة لها رجالها ومميّزاتها الخاصّة.

### 1 – مرحلة النّقل عن نحاة المشرق:

---

[1]-المدارس النّحويّة، د. شوقيّ ضيف، دار المعارف، مصر، ط7، د ت، ص: 188.

[2]- المدراس النّحويّة، د. خديجة الحديثيّ، دار الأمل، إربد، الأردن، ط3، 1422هـ – 2001م، ص: 363.

[3]- ينظر التّفصيل في مراحل الدّرس النّحويّ في الأندلس: طبقات النّحويّين، الزّبيديّ. والنّحو والنّحاة: المدارس والخصائص، خضر موسى محمّد حمّود، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1423هـ – 2003م.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :1 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/02/06، تاريخ القبول: 2019/02/06 ، تاريخ النشر: 2019/03/23

تجمع الرّوايات التّاريخيّة أنّ رحلة النّحو إلى الأندلس تبدأ مع **أبي موسى الهوّاريّ** الّذي يعتبر من أهل الفقه في الدّين، ولمّا رحل إلى المشرق لقي الأصمعيّ وأبا زيد الأنصاريّ، واختلط بأعراب البواديّ العربيّة ليسمع عنهم العربيّة الفصيحة، وكان مؤدّبا لأبناء الخلفاء في عصره. ومن أهمّ نحاتها -أيضا- نجد **جوديّ بن عثمان النّحويّ** الّذي لقي الكسائيّ والفرّاء، وهو أوّل من أدخل كتاب الكسائيّ الأندلس، وله كتاب "**منبّه الحجارة**". وبعده **عبد الملك بن حبيب السّلميّ**؛ الّذي كان عالما في الإعراب واللّغة والتّصرّف في فنون الأدب، وله كتاب "**إعراب القرآن**" و"**وفي شرح الحديث**". تتميّز هذه المرحلة بنقل نحو الكوفيّين إلى الأندلس، وتدريس كتبهم، كما أنّ أغلب نحاتها من المؤدّبين، عملوا على نقل علوم اللّغة والنّحو والفقه والقراءات من المشرق العربيّ، كما سعوا إلى حفظ القرآن الكريم من اللّحن، لذا كان تركيزهم على تعليم النّحو، والقراءات القرآنيّة.

**2 – تطوّر الدّرس النّحويّ في الأندلس:**

بدأت مرحلة تطوّر النّحو في الأندلس في أواخر القرن الثّالث الهجريّ، عندما أخذ النّحاة الأندلسيّون يحتكون بعلماء البصرة، ويقرأون مؤلّفاتهم، وينقلونها بالشّرح والتّدريس إلى حواضرهم، ومن هؤلاء النّحاة نجد "**الأفشنيق**" الّذي قرأ لطلابه بقرطبة **كتاب سيبويه**، ثمّ **محمّد بن يحيى المهلبيّ** الّذي لقي **ابن النّحاس** في مصر، وهو الآخر أخذ عنه كتاب سيبويه، وعاد به إلى قرطبة، وقرأه لطلابه بالشّرح والتّفسير، وأهمّ ما يميّز هذه المرحلة هو نزول **أبو عليّ القاليّ البغداديّ** الأندلس، وما أحدثه من نهضة لغويّة ونحويّة فيها، فقد حمل معه كتبا نفيسة في اللّغة

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :1 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/02/06، تاريخ القبول: 2019/02/06 ، تاريخ النشر: 2019/03/23

والشّعر والنّحو من المشرق ، ومنها كتاب سيبويه، «وكان يجنح إلى المذهب البصريّ، وينافح عنه مناظرا مجادلا.»[1]

وقد خلّف القالي العديد من التّلاميذ الّذين عكفوا على مدارسة كتاب سيبويه وغيره من الكتب، ومن تلاميذه المشهورين في تاريخ النّحو نجد **أبا بكر بن القوطيّة** صاحب كتاب "**الأفعال وتصاريفها**"، و**مّحمّد بن الحسن الزبيّديّ** صاحب كتاب "**طبقات النّحويّن واللّغويّين**". أهمّ ما يميّز هذه المرحلة اعتناء نحاتها بالنّحو البصريّ، وعلى الرّغم من مدارستهم لكتاب سيبويه، إلاّ أنّهم ظلّوا يُعْنَوْنَ بالنّحو الكوفيّ، كما شهدت المرحلة مؤلّفات نحويّة عديدة، وظلّ الاعتناء بالقراءات القرآنيّة، وتكريس الجهود حتّى يبتعد النّاس عن اللّحن؛ هو الهدف الأساسيّ الّذي سعى إليه نحاة ومؤدّبو الأندلس.

### 3 – إسهام نحاة الأندلس في تيسير النّحو العربيّ

عرفت الأندلس وحواضرها نقلا للنّحو العربيّ ودراسته لأبنائها زمنا طويلا، وضهد الدّرس النّحويّ ازدهارا واهتماما واسعا خاصّة في القرن الخامس والقرن السّدس الهجريّ، وانبرى نحاتها يؤلّفون ويبدعون على شاكلة ما قام به النّحويّون المشرقيّون، وبرز من بينهم نحاة رأوا عسرا فيما يقرأون ويدرّسون، وقدّموا اجتهادات نحويّة، أعطت خصوصيّة مميّزة للنّحو في بلادهم، فانبروا إلى تيسير النّحو، وتخليصه من التّعليلات المعقّدة، والأقيسة الكثيرة، بل امتدّ بهم الأمر إلى إحداث ثورة على كتاب سيبويه، وغيره من الكتب النّحويّة الّتي درسوها بعناية شديدة، يحدوهم أمل في تسهيل فهم النّحو عند متعلّمّيهم، فظهر النّحويّ الثّائر ابن مضاء أحمد بن عبد الرّحمن بن محمّد (558هـ – 580هـ)، متأثّرا بالمذهب الظّاهريّ، الّذي تلقاه على يد معلّمه ابن حزم (384- 456 هـ)، هذا الأخير دعا إلى التّمرّد على نحو المشرق العربيّ، وإنّ ما أتوا كذب وافتراء على ظاهر اللّغة العربيّة، يقول في الشّأن:

[1]- المدارس النّحويّة، شوقيّ ضيف، ص: 290.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :1 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/02/06، تاريخ القبول: 2019/02/06 ، تاريخ النشر: 2019/03/23

«إنّ العلل النّحويّة كلّها فاسدة، لا يرجع منها شيء إلى الحقيقة البتّة، وإنّما الحقّ من ذلك أن هذا سمع من أهل اللّغة الّذين يُرجَع إليهم في ضبطها ونقلها، وما عدا هذا، مع أنّه تحكّم فاسد متناقض، فهو أيضا كذب، لأنّ قولهم: كان الأصل كذا، فاستثقل فنقل إلى كذا (...) شيء يعلَم كلّ ذي حسّ؛ أنّه كذب، لم يكن قط، ولا كانت العرب عليه مدة، ثمّ انتقلت إلى ما سمع منها بعد ذلك.»[1] وتتمثّل مظاهر تيسير النّحو عند نحويّي الأندلس، وبخاصّة ابن مضاء؛ في إلغاء نظريّة العامل، والاعتراض على تقدير العوامل المحذوفة، وإلغاء العلل النّحويّة.

## آراء المعاصرين النّحاة في الدّرس النّحويّ الأندلسيّ

قد تختلط الآراء على المعاصرين من النّحاة حول مدرسة الأندلس النّحويّة، والدّرس النّحويّ في الأندلس، والسّؤال الّذي يطرح نفسه: ما حقيقة هذه المسألة؟ وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ شوقيّ ضيف كان من الأوائل الّذين تحدّثوا عن وجود مدرسة أندلسيّة في النّحو العربيّ، حيث يقول: «إنّ أوّل نحاة الأندلس هو جوديّ بن عثمان المُوْروريّ[2]، الّذي رحل إلى المشرق، وتتلمذ على يد الكسائيّ والفرّاء، وهو أوّل من أدخل إلى الأندلس كتب الكوفيّين، وأوّل من صنّف به في النّحو، وما زال يدرسه طلابه حتّى توفي سنة 198هـ»[3] وهو من أوائل نحاة الأندلس الّذين كان إليهم الفضل في وجود مدرسة الأندلس النّحويّة، ويعود إليه الفضل والرّيادة في أنّه أدخل إلى الأندلس كتب الكوفيّين، وألّف في النّحو، واشتغل به.

---

[1]- التّقريب لحدّ المنطق والمدخل إليه، ابن حزم الأندلسيّ، تحقيق: إحسان عبّاس، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، د ط، د ت، ص: 168.

[2]- رحل إلى المشرق، ولقي الكسائيّ وتلميذه الفرّاء؛ شَيْخَيْ المدرسة النّحويّة الكوفيّة، فكان أوّل من أدخل كتاب الكسائيّ إلى الأندلس، وترك مؤلّفا في النّحو من الواضح أن يكون صدى لما أخذه عن الكسائيّ والفرّاء، وفي زمانه عرفت الأندلس نقدا نحويّا للشّعر، واهتماما بتقويم ما خرج عن الأقيسة.- طبقات النّحويّين واللّغويّين، الزّبيديّ، ص: 256.

[3]- المدارس النّحويّة، شوقيّ ضيف، ص: 288.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :1 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/02/06، تاريخ القبول: 2019/02/06 ، تاريخ النشر: 2019/03/23

لكن عمله هذا لا يعني أنّه أسّس لمدرسة أندلسيّة، ووضع قواعدها، وركز أركانها، ثمّ إنّه إذا كان قد فعل شيئا من هذا، فهو نشاط مرتبط بجهود الكوفيّين الّذين تتلمذ على مشايخهم، وعند عودته إلى الأندلس؛ نشر وشرح آراءهم، وجلب كتبهم معه إلى الأندلس، ومع ذلك فهذا لا يعني أنّ الرّجل أسّس لمذهب جديد في الأندلس، أو مدرسة جديدة، لأنّ ما قام به لا يحتمل ذلك إطلاقا.

وما يقال عنه؛ يقال عن أبي عبد الله محمّد بن عبد الله القرطبيّ، الّذي رحل مثله إلى المشرق، وتتلمذ على عثمان بن سعيد المصريّ المعروف باسم (ورش)، وقد أدخل قراءة ورش إلى الأندلس، ويقال: إنّه كان عالما بصيرا بالعربيّة. ومع ذلك لا يمكن أن يقال عنه بأنّه إمام ومؤسّس المدرسة الأندلسيّة، لأنّ عمله انحصر في أخذ قراءة ورش المصريّ، وقام بإدخالها إلى الأندلس بعد عودته إليها، وهذا لا يجعله رائدا من رواد نحاة الأندلس، حتّى وإن كان شوقي ضيف قد وصفه ببصير اللّغة العربيّة وعلومها، وقد ذكر ضيف عددا من القرّاء والنّحاة في القرنين الثّالث والرّابع للهجرة، منهم عبد الله بن الملك بن حبيب السّلميّ (ت: نحو 238هـ)، والّذي قال عنه بأنّه كان إماما في الفقه والحديث والنّحو واللّغة.

يقول شوقيّ ضيف: «إنّ الأندلس قد تأخّرت في الاهتمام بالنّحو البصريّ، وركّزت عنايتها بالنّحو الكوفيّ معتمدة على نحاتها جوديّ بن عثمان، ومحمّد بن موسى بن هاشم (ت:307هـ) الّذي رحل إلى المشرق، والتقى في مصر بأبي جعفر الدّينوريّ، وأخذ عنه كتاب سيبويه عن طريق الرّواية ودرّسه بقرطبة لطلابه، وكان يضع كتاب سيبويه دائما بين يديه، ولا ينقطع عن مطالعته في حال فراغه.»[1] إنّ رحلات مؤدّبيّ الأندلس أكثرها كانت نحو بغداد، حيث كان لقاؤهم بنحويّي الكوفة مثل: الكسائيّ، لهذا تأخّر دخول نحو البصريّين إلى الأندلس، وغيرها من الحواضر

[1] – المرجع نفسه، ص: 289.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :1 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/02/06، تاريخ القبول: 2019/02/06 ، تاريخ النشر: 2019/03/23

الأندلسيّة، ويعتبر محمّد بن موسى بن هاشم المشهور "**الأقشتيق**"[1]؛ أوّل من تبدأ معه المرحلة الجديدة في تطوّر النّحو العربيّ مع طلبة العلم القادمين من الأندلس؛ بحيث نجد في هذه المرحلة بداية تدريس «كتاب سيبويه في مجالس الدّرس النّحويّ (...) واستنسخ ابن هاشم عن أبي جعفر الدّينوريّ كتاب سيبويه من نسخته، وأخذ منه رواية.»[2]

وكان لهؤلاء جهود في النّحو واللّغة، وخاصّة الّذين نقلوا كتاب سيبويه إلى الأندلس[3]، وتدريسه إلى طلابهم، وكلّلت جهودهم بتدوين المصنّفات في النّحو العربيّ واللّغة، ولكن لم ترقَ هذه الجهود إلى تأسيس مدرسة نحويّة؛ لها أسسها وقواعدها، ولكن تبقى جهود هؤلاء لا تعدّ مقدّمة لبناء مدرسة الأندلس النّحويّة كما يظنّ بعض المعاصرين.

وقد أخذت دراسة النّحو تزدهر في الأندلس في عهد ملوك الطّوائف؛ لأنّ نحاتُهم كانوا يخالطون جميع النّحاة (من بصريّين وكوفيّين وبغداديّين). ويختارون

---

[1]- **الأقشتيق**: هو محمّد بن موسى بن هاشم بن زيد، مولى المنذر –رضي الله عنه – وكان متصرّفا في علم الأدب والخبر، ورحل إلى المشرق، فلقي أبا جعفر الدّينوريّ، واستنسخ كتاب سيبويه، وأخذه عنه رواية، وأخذه عن المازنيّ، وروى كتب ابن قتيبة عن إبراهيم بن جميل الأندلسيّ، أخذها عنه بمصر، وله كتب مؤلّفة في الأدب، منها: شواهد الحكم، وكتاب طبقات الكتّاب. وتوفّي في رجب سنة سبع وثلاثمائة. – طبقات النّحويّين واللّغويّين، الزّبيديّ، ص: 281 - 282.

[2]- المدارس النّحويّة، خديجة الحديثيّ، ص: 311.

[3]- قد ذكر شوقيّ ضيف عددا كبيرا من الرّجال الّذين كانت لهم عناية واهتمام بكتاب سيبويه؛ إذ نقلوه من المشرق إلى الأندلس، وتدارسوه مع طلبة العلم أمثال: محمّد بن يحيى المهلبيّ الرّباحيّ (ت: 353هـ)، وأبي عليّ القاليّ (ت: 356 هـ)، وأبي بكر بن القوطيّة (ت: 367هـ)، ومحمّد بن الحسن الزّبيديّ (ت: 379هـ)، وأبي عبد الله محمّد بن عاصم العاصميّ (ت: 382هـ)، وأحمد بن أبان (ت: 382هـ)، وهارون بن موسى القرطبيّ (ت: 401هـ)، وابن الإفليليّ (ت: 441هـ) وابن سيده (ت: 448هـ). ينظر: المدارس النّحويّة، ص: 290- 292.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :1 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/02/06، تاريخ القبول: 2019/02/06 ، تاريخ النشر: 2019/03/23

من آراء نحاة الكوفة والبصرة، ويضيفون إليها بعضا من آراء البغداديّين، وخاصّة أبي عليّ الفارسيّ، وابن جنيّ، ويسيرون في أغلب الأحيان في اتّجاههم من كثرة التّعليلات، والميل إلى بعض الآراء الجديدة، وهذا ما يساعد منهج البغداديّين على النّمو والازدهار. «وكان الأعلم الشّنتمريّ (ت: 476هـ) [1] هو أوّل من نهج لنحاة الأندلس في قوّة هذا الاتّجاه، لأنّه كان لا يكتفي في الأحكام النّحويّة بالعلل الأولى الّتي يدور عليها الحكم، مثل أن كلّ مبتدأ مرفوع، بل كان يطلب علّة ثانية لمثل هذا الحكم، يوضّح بها لماذا رفع المبتدأ، ولم ينصب.»[2]

ونجد في ما ذكره شوقيّ ضيف بأنَّ نحاة الأندلس؛ قد خالطوا جميع النّحاة (بصريّين وكوفيّين وبغداديّين)، وأنّهم انتهجوا نهج الكوفيّين والبغداديّين من الاختيار من آراء نحاة الكوفة والبصرة، وأضافوا إلى تلك الاختيارات من آراء البغداديّين أمثال أبيّ عليّ الفارسيّ، وابن جنيّ[3].

وإذا أخذنا بهذا الكلام؛ فإنّ ما قام به النّحاة في بلاد الأندلس لا يشكّل مدرسة أندلسيّة قائمة بنفسها؛ لأنّ عملهم انحصر في اختيار آراء الكوفيّين والبصريّين والبغداديّين، وهذا الاختيار لا يمكن أن يؤسّس مدرسة مستقلّة؛ لأنّهم اختاروا ما راقهم دون أدنى تعصّب لهذا أو لذلك. إذ نظروا فيما وصلهم من آراء النّحاة نظر المتفحّص، وأخذوا منها ما يناسبهم. وبهذا لا يمكن لمجموعة من النّحاة في

[1]- هو الأعلم الشّنتمريّ يوسف بن عيسى النّحويّ، كان عالما بالعربيّة واللّغة ومعاني الأشعار، حافظا لها، حسن الضّبط لها، مشهورا بإتقانها، رحل إلى قرطبة أخذ عن إبراهيم الإفليليّ، وصارت إليه الرّحلة في زمانه. – بغيّة الوعاة في طبقات النّحويّين والوعاة، ج2، جلال الدّين عبد الرّحمن السّيوطيّ، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط2، 1979م، ص: 356 .

[2]- المدارس النّحويّة، شوقيّ ضيف، ص: 292- 293.

[3]- الرّدّ على النّحاة، ابن مضاء القرطبيّ، نشره وحقّقه: د. شوقيّ ضيف، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، ط1، 1366هـ – 1947م، ص: 160.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :1 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/02/06، تاريخ القبول: 2019/02/06 ، تاريخ النشر: 2019/03/23

أيّ زمن أن ينظروا في آراء السّابقين لهم ويختاروا منها، ثم يقولوا: هذا نحو جديد، وهذه مدرسة جديدة في النّحو.

ثم إنّ شوقيّ ضيف وسم كلاّ من أبيّ عليّ الفارسيّ، وابن جنيّ بأنّهما من البغداديّين، وكيف يستقيم هذا وأبو عليّ نفسه يردّد في مصنّفاته: «قياس أصحابنا كذا، وقياس البغداديّين كذا.»[1] ولا يمكن للأعلم الشّنتمريّ أن يكون صاحب مدرسة نحويّة؛ لأنّ البحث عن العلل النّحويّة كثر فيها الكلام، فهذا ابن الأنباريّ (ت: 577ه) قد صنّف كتاباً في ذلك وهو **"أسرار العربيّة"**، وكان الزّجاجيّ (ت: 338ه) من قبلُ قد صنّف كتابه المعروف **"الإيضاح في علل النّحو"**[2] والسّؤال الّذي يطرح نفسه: هل يمكن أن نعتبر تصنيفهما بمثابة تشكيل مدرسة؟

إنّ جهود الأندلسيّين في النّحو لم تظهر ملامحها على يد الأعلم الشّنتمريّ، أو سواه ممّن تقدّمه؛ بل ظهرت واضحة على يد واحد من أعلام نحاة الأندلس، وهو ابن مضاء القرطبيّ الّذي جعله شوقيّ ضيف من أعلام المدرسة الأندلسيّة، إذ يقول: «وقد استلهم ابن مضاء هذه الثّورة لا في حمله على الفقه والفقهاء، وإنّما في حمله على النّحو والنّحاة من حوله، إذ وجد مادّة العربيّة تتضخّم بتقديرات وتأويلات وتعليلات وأقيسة وشعب وفروع وآراء لا حصر لها، ولا غناء حقيقيّ في تتبّعها أو على الأقلّ في تتبّع الكثير منها، فمضى يهاجمها في ثلاثة كتب هي: **"المشرق في النّحو"** و

[1]- أبو عليّ الفارسيّ، حياته ومكانته بين أئمة التّفسير والعربيّة وآثاره في القراءات والنّحو، عبد الفتّاح إسماعيل شلبيّ، النّاشر: دار المطبوعات الحديثة، جدّة، د ط، 1409ه – 1989م، ص: 106.

[2]- سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جنيّ، تحقيق: د. حسن هنداويّ، دار القلم، دمشق، ط2، 1413ه – 1993م، ص: 180.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :1 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/02/06، تاريخ القبول: 2019/02/06 ، تاريخ النشر: 2019/03/23

"**تنزيه القرآن عمّا لا يليق بالبيّان**" و"**الرّدّ على النّحاة**"، وفيه يهاجم نظريّة العامل الّتي لا طائل وراءها في رأيه.»[1]

لقد دعا ابن مضاء في كتابه الرّدّ على النّحاة إلى الاستغناء عن العديد من الأسس والقواعد الّتي بني عليها النّحو العربيّ، وفي رأيه أنّها أفسدت النّحو، وأثقلت كاهل متكلّمي اللّغة العربيّة أكثر ممّا نفعتهم، وعسّرت ولم تيّسر، وبالتّالي خرجت عن الغرض الّذي من أجله وضع النّحو، بحيث يقول: «وإنّي رأيت النّحويّين – رحمة الله عليهم – قد وضعوا صناعة النّحو لحفظ كلام العرب من اللّحن، وصيانته عن التّغيير، فبلغوا من ذلك الغاية الّتي أمّوا، وانتهوا إلى المطلوب، إلاّ أنّهم التزموا ما لا يلزمهم وتجاوزوا به القدر الكافي فيما أرادوه منها، فتوعّرت مسالكها، ووهنت مبانيها، وانحطّت عن رتبة الإقناع حججها.»[2] وقد ذكر شوقيّ ضيف في كتابه تيسير النّحو التّعليميّ عن ابن مضاء: «وبدأ بنظريّة العوامل والمعمولات؛ يبتغي أن ينقضها نقضاً، هي وكلّ ما جرّت إليه من عوامل لفظيّة ومعنويّة، ومن معمولات مذكورة ومضمرة محذوفة.»[3]

ولكي يدلّ على فساد تلك النّظريّة؛ أورد ما ترتّب عليها في الصّيغة العربيّة من عوامل محذوفة، إمّا لعلم المخاطب بها، كما يقول النّحاة في مثل: من جاء؟ فيقال: زيدٌ، ويقدّرون أنّ أصل الجواب: جاء زيد، وإمّا لمجرّد الافتراض، كتقدير النّحاة في مثل: الكتابَ قرأته، أنّ "الكتاب" مفعول به لفعل محذوف، ويبيّن ابن مضاء فساد كلّ هذه التّقديرات، كنقضه لفكرة العوامل المحذوفة في الاستفهام أو في الاشتغال أو في تعليق شبه الجملة حين تقع خبراً أو صلة أو صفة أو حالاً، ولكن

---

[1]- المدارس النحوية، ص305.

[2]- الرّدّ على النّحاة، ابن مضاء القرطبيّ، نشره وحقّقه: د. شوقيّ ضيف، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، ط1، 1366هـ – 1947م، ص: 80.

[3]- تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا، ص17.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :1 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/02/06، تاريخ القبول: 2019/02/06 ، تاريخ النشر: 2019/03/23

كلّ هذا هو من باب الخلاف بين النّحاة، فابن مضاء يلغي فكرة العامل المقدّر نهائيًّا تبعاً لمذهبه الظّاهريّ الّذي حاول أن يطبّقه على النّحو، فلاقى هذا المذهب القبول عند بعض النّاس، ورفضه كثير منهم، ولكن أحداً من معاصريه، أو ممّن تلاه لم يقل إنّ ابن مضاء في نقضه لفكرة العوامل المحذوفة قد صارت له مدرسة جديدة في النّحو العربيّ.

وقد يقول قائل: إنّ ابن مضاء لم يذهب إلى فساد نظريّة العوامل والمعمولات فحسب؛ بل دعا إلى حذف أبواب من النّحو العربيّ بناءً على نظريّته تلك، وبناءً على هذا فإنّ ابن مضاء يدعو إلى حذف باب الاشتغال، وكان دعا أيضاً إلى إلغاء باب التّنازع. وإنّ دعوته تلك كانت ثورة على النّحو والنّحاة كما يسمّيها شوقيّ ضيف[1]، ولكن كلّ هذه الدّعوات جميعاً لا ترقى إلى مستوى الانتظام في مدرسة نحويّة جديدة، وإن صحّ هذا لقال قائل: إنّ الأخفش الأوسط ؛كان له كثير من الآراء الّتي خالف فيها أصحابه البصريّين؛ بل كان فيها على طرفي نقيض معهم، فهل يصحّ والحالة هذه أن نجعل الأخفش بناءً على تلك الآراء صاحب فكر نحويّ جديد؟ ولكن ما جاء به لا يعدو أن يكون مجرّد آراء خالف فيها أصحابه، وهذه الآراء مجتمعة يمكن اعتبارها مذهباً في النّحو لا غير.

ولأنّ دعوة ابن مضاء لم تقتصر على حذف بعض أبواب النّحو؛ بل دعا أيضاً إلى إلغاء العلل الثّواني والثّوالث من النّحو، وإلى إلغاء القياس، وهنا يقول شوقيّ ضيف معقّباً على ذلك: «وابن مضاء محقّ كلّ الحقّ في ثورته على هذه العلل الثّواني والثّوالث، ودعوته إلى إلغائها جملة من كتب النّحو؛ لأنّها لا تفيد سوى التّخيّل، والفرض العقليّ البعيد دون أيّ تصحيح للنّطق، وما يتّصل بالنّطق، ومع

[1]- ينظر: تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا، ص20، 21.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :1 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/02/06، تاريخ القبول: 2019/02/06 ، تاريخ النشر: 2019/03/23

ذلك تجادل فيها النّحاة طويلاً، وألّفوا فيها كتباً مستقلّة، وليس وراءها أيّ نفع أو طائل نحويّ.»[1]

وممّا يؤذن ببطلانها –أيضاً- أنّ النّحاة الّذين تحدّثوا عن تلك العلل في مصنّفاتهم؛ لم يضعوا هذه المصنّفات لصغار المتعلّمين؛ بل وضعوها لمن كان له حظّ وافر من اللّغة والنّحو، ولو سلّمنا بأنّ ما جاء به ابن مضاء يعدّ ثورة على النّحو، فإنّه لن يصل إلى حدّ يجعل لهم مدرسة خاصّة بهم، لأنّه لو كانت لهم مثل هذه المدرسة فهذا يعني أنَّ لها معالمُ واضحة؛ من حيث الأصول النّحويّة والمنهج والمصطلح، وهذا كلّه لا يتوافر لدارس جهود أولئك النّحاة؛ لأنّ بعضهم كان له الفضل في إدخال كتب الكوفيّين إلى الأندلس، أو إدخال قراءة وَرْش المصريّ، أو كتاب سيبويه، والعناية به وتدريسه لطلاب العلم، وتدوين المصنّفات في النّحو واللّغة، وهي مصنّفات لم يخرج أصحابها عن متابعة آراء البصريّين، وتابع آخرون آراء الكوفيّين، بينما اختار فريق ثالث من آراء هؤلاء وهؤلاء، وتفرّد بعض النّحاة بآراء لم يسبقوا إليها، واعتنى آخرون بالعلل الأولى، ثمّ طلبوا العلل الثّواني والثّوالث- كما كان لدى الأعلم الشنتمريّ مثلاً- بينما دعا بعضهم كابن مضاء إلى نسف هذه العلل من جذورها، وحذف أبواب من النّحو، أو إلغاء القياس.

إنَّ كلّ الجهود النّقديّة التي أشير إليها سابقا لم يكن لها كبير أثر في الأصول النّحويّة أو منهج النّحو العربيّ، أو حتّى في المصطلح النّحويّ، وهي في مجموعها لا تؤلّف مدرسة خاصّة، تتميّز بها عن مدرسة البصرة، لأنّ النّحو العربيّ؛ لم يعرف سوى مدرسة واحدة، وهي مدرسة البصرة، لأنّ الخلاف بين النّحاة خلاف في الفروع وليس في الأصول؛ ويمكن اعتبارها مذاهب في النّحو، فيقال: مذهب الكوفيّين، ومذهب البغداديّين.

[1]- تيسير النّحو التّعليميّ قديما وحديثا مع نهج تجديده، ص22 - 23.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :1 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/02/06، تاريخ القبول: 2019/02/06 ، تاريخ النشر: 2019/03/23

**خاتمة**

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الّذين درسوا جهود كبار أعلام الأندلس كأبيّ حيان الأندلسيّ –وهي دراسات كثيرة كما هو معروف-؛ لم يقولوا إنّ أبا حيان قد انتمى إلى مدرسة الأندلس؛ بل قيل: إنّه كان يختار من آراء الكوفيّين والبصريّين، وإنّ السّمة الغالبة في مصنّفاته هي سمة بصريّة. وإذا قيل هذا في أشهر أعلامهم فهذا يؤكّد أنّ النّحو العربيّ؛ لم يعرف مثل هذه المدرسة في تاريخه، لأنّه لو وجدت مدرسة الأندلس؛ لكان أبو حيان من كبار أعلامها.

إذا سلّمنا بالتّعريف القائل: إنّ المنهج هو «التّنظيم الدّقيق لمجموعة من الأفكار من أجل الوصول إلى حقيقة؛ لم تكن معروفة من قبل، ويطبع هذا التّنظيم وجود طائفة من القواعد العامّة تسيطر على سير العقل.»[1] فإنّنا لا يمكن حتّى اعتبار ما جادت به أقلام نحاة الأندلس منهجا نحويّا، فطبقا لما جاء في تعريف المنهج؛ هم لم يأتوا بحقيقة غير معروفة من قبل، وإنّما نقلوا، ثمّ بنوا أفكارا انتقاديّة على ما كان سائدا من تنظيم وقواعد مسيطرة على العقل اللّغويّ.

إذا اعتبرت آراء ابن مضاء مدرسة فلماذا لم يعتّد بها في حينها؟ وقد جاء في المرويات التّاريخيّة أنّ آراءه؛ لم تؤخذ بعين الاعتبار، ولم يأخذ أحد بما جاء في كتابه، ولولا عمليّة تحقيقه الّتي قام بها شوقيّ ضيف؛ لظلّ كتاب الرّدّ على النّحاة من المطويات المنسية في مجاهيل التّاريخ، وحتّى بعد أن أحياه محقّقه؛ فإنّه لم يعمل به، ولم تغيّر الأمّة العربيّة من الدّرس النّحويّ العربيّ القديم، وأصوله ومناهجه وآليّاته ونظريّاته إلى يومنا هذا، إذن فلا يمكن اعتبار ما جاء به ابن مضاء من آراء في النّحو مدرسة، وهي في حقيقتها انتقادات موجّهة لنّحاة المشرق، ومن الدّعائم الّتي تكوّن مدرسة حقّا؛ التّوجّهات اللّغويّة (اللّسانيّة)، والخلفيّات المعرفيّة، والمناهج العلميّة المعتمدة.

[1]- منهج البحث اللّغويّ، محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، ط1، 2000م، ص: 82.

المجلد :7 / العدد :1 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421

تاريخ الارسال : 2019/02/06، تاريخ القبول: 2019/02/06 ، تاريخ النشر: 2019/03/23

**قائمة المصادر والمراجع**

1- أبو عليّ الفارسيّ، حياته ومكانته بين أئمة التّفسير والعربيّة وآثاره في القراءات والنّحو، عبد الفتّاح إسماعيل شلبيّ، النّاشر: دار المطبوعات الحديثة، جدّة، د ط، 1409هـ – 1989م.

2 - أسرار العربيّة، أبو البركات ابن الأنباري، تحقيق: بركات هبّود، دار الأرقم، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ-1999م.

3 - بغيّة الوعاة في طبقات النّحويّين والوعاة، ج2، جلال الدّين عبد الرّحمن السّيوطيّ، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط2، 1979م .

4 - تاريخ الأدب العربيّ، ج2، كارل بروكلمان، نقله إلى العربيّة: د. عبد الحليم النّجّار، دار المعارف، القاهرة، ط4، د ت.

5 - التّقريب لحدّ المنطق والمدخل إليه، ابن حزم الأندلسيّ، تحقيق: إحسان عبّاس، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، د ط، د ت.

6 - تيسير النّحو التّعليميّ قديما وحديثا، د. شوقيّ ضيف، دار المعارف، مصر، ط1، 1993م.

7 - الرّدّ على النّحاة، ابن مضاء القرطبيّ، نشره وحقّقه: د. شوقيّ ضيف، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، ط1، 1366هـ – 1947م.

8 - سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جنيّ، تحقيق: د. حسن هنداويّ، دار القلم، دمشق، ط2، 1413هـ – 1993م.

9 - طبقات النّحويّين واللّغويّين، أبو بكر محمّد بن الحسن الزّبيديّ الأندلسيّ، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط2، د ت.

10 - عالم اللّغة عبد القاهر الجرجانيّ، زهران البدراويّ، دار المعارف، مصر، 1981م.

11 - المدراس النّحويّة، د. خديجة الحديثيّ، دار الأمل، إربد، الأردن، ط3، 1422هـ – 2001م.

12 - المدارس النّحويّة، د. شوقيّ ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط7، د ت.

13 - مراتب النّحويّين، أبو الطّيّب عبد الواحد بن عليّ اللّغويّ الحلبيّ، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، د ط، د ت.

14 – منهج البحث اللّغويّ، محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، ط1، 2000م.

15 - نشأة النّحو وتاريخ أشهر النّحاة، الشّيخ أحمد الطّنطاويّ، دار المعارف، القاهرة، ط2، د ت.